فاعلية المقاربة الإثنوغرافية في ظل البيئة الرقمية

The effectiveness of the ethnographic approach in the digital environment

بوزيان نورالدين*[1]، شكيب دالي أحمد[2]

1 جامعة طاهري محمد، بشار (الجزائر)، bouziane.noureddine@univ-bechar.dz

2 جامعة طاهري محمد، بشار (الجزائر)، daliahmed.chakib@univ-bechar.dz

تاريخ الاستلام: 2024/04/28 تاريخ القبول: 2024/05/.08 تاريخ النشر: 2024/06./10

ملخص:

لقد أعاد الانفجار الرّقمي رسم طبيعة العلاقات تفاعليا بما لم يكن متوقعا، حيث بات التّفاعل عن بعد سمته الأساسية، فلا الحدود السّياسية بين الدّول ولا تباين الثّقافات يقف حاجزا دون هذا التّفاعل مع ما يصاحب ذلك من تبادل معلومات وأحاسيس قد تكون صادقة أو كاذبة؛ الأمر الّذي دفع الباحثين في مجال الإعلام والاتصال إلى العمل على مواكبة هذا التّغيّر والسّعي لدراسته دراسة علمية لفهم أبعاده وما يترتّب عنها، فكان أن اعتمدوا المقاربة الإثنوغرافيّة؛ كون طبيعة المجموعات المدروسة تحمل مؤشّرات الجماعات الّتي يدرسها الإثنوغرافيّون بكلّ ما تتضمّنه من رمزيّات وممارسات، لينشأ لنا بذلك تخصّص الإثنوغرافيّة الرّقميّة.

تأسيسا على ماسبق يهدف هذا المقال إلى معرفة مخرجات التّراكم المعرفيّ في هذا الحقل التّخصّصيّ الجديد، كما يسعى لمعرفة طبيعة الصّعوبات الّتي تواجه الباحثين فيه، إضافة إلى استخلاص حوصلة نقديّة لكلّ ذلك.

كلمات مفتاحية: الفضاء الرّقميّ، الإثنوغرافيّة الرّقميّة، الوحدات الشّبحيّة، الملاحظة بالمشاركة، النّكوص الإبستيمولوجيّ.

Abstract:

The digital explosion has redrawn the nature of interactive relations in a way that was unimaginable, as interaction at a distance has become its main feature, no political borders

* المؤلف المرسل: بوزيان نورالدين

between countries nor cultural differences stand in the way of this interaction, with the accompanying exchange of information and feelings that may be genuine or fake, which prompted researchers in the field of media and communication to work to keep up with this change and seek to study it scientifically to understand its dimensions and its consequences. They adopted the ethnographic approach, as the nature of the groups studied carries the indicators of the groups studied by ethnographers, with all their symbols and practices, thus creating the discipline of digital ethnography.

This article aims to identify the outcomes of the accumulation of knowledge in this new specialised field, as well as the nature of the difficulties facing researchers in this field, in addition to drawing a critical conclusion.

Keywords: Digital space, digital ethnography, digital ethnography, participant observation, participatory observation, epistemological regression.

1. مقدمة:

نظرا للطّفرة الهائلة في مجال النّشاطات التكنولوجية، فإنّ الثّورة الرّقميّة قد ألقت بتبعاتها على مختلف مناحي الحياة، إذ لا يوجد مجال منها إلاّ وقد مسّته وأدخلت عليه تحسينات جمّة، فقد ساهمت في تطوير الرّياضيّات والطّب والهندسة وصولا إلى العلوم الإنسانية والاجتماعية التي كان لعلوم الإعلام والاتصال النّصيب الأوفر من تأثيراتها المدهلة، وقد ساهم هذا في بروز علوم بينيّة مزجت بين مقرّرات العلوم الإنسانية والعلوم السّيبرانيّة كان من بينها علم الإثنوغرافيّة الرّقمية الّذي سنحاول في هذا المقال معرفة مدى تحقيقه لمتطلّبات الأداء المنهجي في الفضاء الرّقمي. ومنه نطرح التساؤل التالي: ما مدة فاعلية المقاربة الإثنوغرافية في ظل البيئة الرقمية؟

2. مفهوم الإثنوغرافيا ومرتكزاتها المنهجية:

الإثنوغرافيا مصطلح مركّب من الكلمتين اليونانيّتين " إثنوس " ومعناها العرق و"غرافوس " ومعناها الوصف، وعليه فهي دلاليّا " الدّراسة الوصفيّة للأعراق "، وفي هذا التّعريف يتجسّد هدف هذا التّخصّص المتمثّل في تقديم أفكار ثريّة وشاملة حول تصور الشّعوب لمختلف مناحي الحياة والأفعال كممارسات تؤطّرها تلك التّصوّرات، دون إغفال ربطها بسياقها البيئي الحاضن لها لما للبيئة الفيزيقيّة من أثر في صقل التّصوّرات ورسم إمكانيات الفعل البشري تبعا لذلك، وهذا عين ما عبّر عنه " هامرسلي " حينما صرّح أنّ : " مهمّة الإثنوغرافيّين تتمثّل في توثيق ثقافة ووجهات نظر وممارسات النّاس في هذه المواقع، إذ المطلوب من هؤلاء الباحثين هو الدّخول والاندماج بنفس الطّريقة الّتي ترى بها هذه المجموعة من النّاس العالم " (Reeves and Peller ، 2013، 1366)، والبحث الإثنوغرافي هو أحد أنماط البحث النّوعيّ (الكيفيّ) تمّ تطويره من خلال المنهجيّة الأنثروبولوجيّة، حيث يهدف لفهم المجتمعات والثّقافات من خلال دراسة الجوانب الإنسانيّة الفرديّة والاجتماعيّة والثّقافيّة بكلّ تفاصيلها، مرتكزا في ذلك على جمع البيانات وتبويبها وتحليلها وتفسيرها استنادا إلى الملاحظة بالمعايشة والمقابلات وتحليل الوثائق المستقاة من ميدان الدّراسة، وما يستتبع ذلك من وصف لنتائج البحث والمعطيات الجديدة المستمدّة منه، لذا فإنّ الإثنوغرافيا بشكل عامّ تعدّ في الغالب نصّا توصيفيّا تفصيليّا يتجسّد كعمل أكاديميّ مكتوب في شكل تقرير بحثيّ أو مقال أو دراسة أو كتاب(Shagrir ،2017، 9-11).

إن البحوث الإثنوغرافية تهتم أكثر بالتّفاعلات الاجتماعيّة والسّلوكات والتّصورات الّتي تحدث داخل الفرق والمنظّمات والجماعات، باعتبار أن جذورها ترجع إلى الدّراسات الحقليّة للتّجمعات الصّغيرة والرّيفية (النّائية في كثير من الأحيان)، والّتي أجريت في أوائل القرن العشرين، أين عمد باحثون مثل " برونيسلاو مالينوفسكي " و" ألفريد رادكليف براون " إلى دراسة هذه التّجمعات على مدى فترات طويلة نسبيّا موثّقين بذلك وبدقّة وتفصيل مختلف

مناحي تنظيماتهم الاجتماعيّة ومعتقداتهم، وقد تمّ تبنّي هذا الأسلوب المنهجيّ لاحقًا من قبل أعضاء " مدرسة شيكاغو " السّوسيولوجيّة (على سبيل المثال : " إيفريت هيوز " ، " روبرت بارك " ، " لويس ويرث ")، حيث عمدوا إلى تطبيقه على مجموعة متنوّعة من المناطق الحضريّة في دراساتهم للحياة الاجتماعيّة (Reeves and Peller ، 2013، 512).

فضلا عن ذلك استخدمت البحوث الإثنوغرافيّة في العديد من المجالات مثل الطّبّ وعلم النّفس وعلم الاجتماع وأنظمة المعلومات والتّعليم ...إلخ، وأكثر من ذلك تم توجيه البحوث الإثنوغرافيّة نحو التّركيز على البيئة الطّبيعية للأنظمة الثّقافيّة، وإتاحة الفرصة لدراسة السّلوكات والمعايير والمعتقدات والعادات والقيم والأنماط والظّواهر البشريّة بالطّريقة التي يتمّ التّعبير عنها في الممارسة الواقعية؛ وبشكل عام تسعى هذه البحوث إلى فهم أشكال الحياة وأنظمة الفكر والسّلوك في مختلف الثّقافات والمنظّمات والبنيات الاجتماعيّة، الثّقافية والسّياسية على حدّ سواء، وتوفير رؤى غنيّة ودقيقة ومفصّلة للواقع الفعليّ وأساليب الحياة والتّفاعلات الاجتماعيّة وتصوّرات النّاس وأفعالهم كما تتجسّد في سياق البيئة الّتي يعيشون فيها (Shagrir ،2017، 9).

بناء على ما سبق يتّضح أن الإثنوغرافيا منهج بحث في العلوم الاجتماعية، يعتمد بشكل كبير على التّفاعل الشّخصي عن قرب والمشاركة بالمعايشة، لهذا يحاول البحث الإثنوغرافيّ النّموذجيّ استخدام ثلاثة أنواع من جمع البيانات: المقابلات والملاحظة بالمشاركة والوثائق؛ ينتج عن هذا بدوره ثلاثة أنواع من البيانات: الاقتباسات والتّوصيف ومقتطفات من المستندات، ممّا ينتج عنه حصيلة واحدة: الوصف السّرديّ؛ أين يتضمّن هذا السّرد غالبًا المخطّطات والرّسوم البيانيّة والملاحق الإضافيّة الّتي تساعد في سرد "الوقائع" مانحة معنى للبنيات المدروسة من خلال نماذج تأويليّة جديدة، مع إتاحة مزيد من الاختبارات التّجريبيّة النّقديّة في هذا المجال عن طريق تبنّي طرق العلوم الاجتماعيّة التّقليديّة والكمّيّة (GENZUK ، 2003، 12).

3. العلاقة بين الأنثروبولوجيا ، الإثنولوجيا والإثنوغرافيا:

يتساءل " كلود ليفي ستروس " **LEVI-STRAUSS Claude** في كتابه " الأنثروبولوجيا البنيويّة " **Anthropologie structural** عن العلاقات والاختلافات الموجودة بين الإثنوغرافيا والإثنولوجيا والأنثروبولوجيا، ثم يضيف فيقول: الإجابة على السّؤال واضحة نسبيّا، إذ يبدو أن جميع البلدان لديها تصوّرا للإثنوغرافيا بنفس الطّريقة، حيث أنّ الإثنوغرافيا تتوافق مع المراحل الأولى من البحث: الملاحظة والوصف، العمل الميداني، أين تشكّل الدّراسة الحقليّة (منوغرافيا) التي تطبّق على مجموعة صغيرة ومحصورة وبدرجة كافية لتمكّن الباحث من جمع معظم معلوماته عن طريق تجربته الشّخصيّة نفس النّوع مع الدّراسة الإثنوغرافيّة، نضيف فقط أن الإثنوغرافيا تشمل الأساليب والتّقنيّات المتعلّقة بالعمل في الميدان في تصنيف ووصف وتحليل ظواهر ثقافيّة خاصّة (سواء كانت أسلحة أو أدوات أو معتقدات أو مؤسّسات) في حالة الأشياء المادّيّة، تستمرّ هذه العمليّات بشكل عامّ في المتحف والّتي يمكن اعتبارها في هذا الصّدد امتدادًا للميدان (LEVI-STRAUSS ، 1958، 387).

بالمقارنة مع الإثنوغرافيا ، فإنّ الإثنولوجيا تمثّل الخطوة الأولى نحو التّجميع والتّوليف، ودون استبعاد الملاحظة المباشرة فإنّ الإثنولوجيا تميل وتقدّم استنتاجات واسعة بما يكفي بحيث يصعب بناءها فقط على المعرفة المباشرة والأوّليّة فقط، هذا التّجميع والتّوليف يمكن إجراءه في ثلاثة اتجاهات: جغرافيّا، تاريخيّا، منهجيّا، بهذا المعنى يتمّ تطبيق مصطلح الإثنولوجيا على سبيل المثال، في مكتب الإثنولوجيا الأمريكيّة التّابع لمعهد " سميثسونيان " أو في معهد الإثنولوجيا بجامعة " باريس "، وفي جميع الحالات فإنّ الإثنولوجيا تشمل وتتضمّن الإثنوغرافيا كخطوة أوّليّة لها وتشكّل امتدادًا لها، على الأقلّ لفترة طويلة وفي العديد من البلدان، اعتبرت هذه الازدواجية كافية في حدّ ذاتها (LEVI-STRAUSS ، 1958، 387-388).

على العكس من ذلك، أينما نصادف مصطلحات الأنثروبولوجيا الاجتماعيّة أو الثّقافيّة، نجدها مرتبطة بمرحلة ثانية وأخيرة من التّجميع والتّوليف الّتي تعتبر استنتاجات الإثنوغرافيا والإثنولوجيا أساسا لها، في البلدان الأنجلوسكسونيّة ، تهدف الأنثروبولوجيا إلى الإحاطة الشّاملة بالإنسان، مع الإلمام بالموضوع بكل امتداده التّاريخي والجغرافيّ؛ وتطمح إلى معرفة قابلة للتّطبيق على كلّ مراحل التّطوّر البشريّ منذ الجنس البشريّ الأوّل إلى غاية الأجناس الحديثة؛ مع تقديم استنتاجات إيجابيّة أو سلبيّة، لكنّها صالحة لكلّ المجتمعات البشريّة ، من أكبر المدن الحديثة الكبيرة إلى أصغر قبيلة ميلانيزية (في غينيا الجديدة) (LEVI-STRAUSS ، 1958، 388).

بهذا المعنى، يمكن القول أنّه توجد بين الأنثروبولوجيا والإثنوغرافيا نفس العلاقة الّتي حددناها أعلاه بين الإثنولوجيا والإثنوغرافيا، وبالتّالي لا تشكّل الإثنوغرافيا والإثنولوجيا والأنثروبولوجيا ثلاثة تخصّصات مختلفة أو ثلاثة مفاهيم مختلفة لنفس الدّراسات، بل في الواقع تمثّل ثلاث مراحل أو ثلاث لحظات من نفس البحث، وتفضيل واحد من هذه المصطلحات يعبّر فقط عن الاهتمام السّائد والموجّه نحو نوع من البحث ، والّذي لا يمكن أبدًا أن يكون مقصورًا على المراحل البحثيّة الأخرى (LEVI-STRAUSS ، 1958، 388-389).

لذا في هذا السّياق يمكن القول أنّ كلاّ من الإثنوغرافيا والإثنولوجيا والأنثروبولوجيا هي عبارة عن مستويات الأداء والنّشاط البحثي في مجال دراسة الإنسان على اختلاف أعراقه وبيئاته وثقافاته، لذا جرى العرف ببساطة في هذا المجال على اعتبار أنّ الإثنوغرافيا تركّز في نشاطها البحثي على عملية الوصف، في حين تعمد الإثنولوجيا علاوة على الوصف إلى التّرتيب وتحليل المعطيات، أمّا الأنثروبولوجيا ففي هذا السّياق تعتبر أكثر شموليّة كونها تستغرق كلاّ من الوصف والتّحليل وتضيف إليهما بعد المقارنة بين نتائج دراسات جماعات مختلفة.

4. خصوصية البحث الإثنوغرافي:

يمكن القول أنّ الإثنوغرافيا هي الوصف المكتوب للتّنظيم الاجتماعيّ والممارسات الاجتماعيّة والمصادر الرّمزيّة والمّاديّة والممارسات التّفسيرية التي تميّز مجموعة معيّنة من النّاس، ويتمّ إنتاج هذا الوصف عادة بواسطة المشاركة المطوّلة والمباشرة في حياة مجتمع ما، لكنّ طبيعة هذا الوصف غريبة نوعا ما، حيث له ميزتان قد تبدوان متناقضتين: 1- أن يبتعد العالم عن ردّات فعله الثّقافيّة والمباشرة ليتمكّن من أن يكون موضوعيّا نوعا ما، 2- أن يميل إلى التّعاطف أو دمج نفسه مع أعضاء المجموعة لكي يكوّن وجهة نظر من الدّاخل في ما يسمّيه الأنثروبولوجيّون الرّؤية الأمّيّة (Emic) (دورنتي، تر: درويش، 2013، 153).

هذا الوصف الإثنوغرافيّ وإن كان متناقضا فإنّه يعتمد على مجموعة من الأساليب، تتضمّن الاتّصال المباشر والمستمرّ مع الوكلاء البشريّين في سياق حياتهم اليوميّة (والثّقافات)، ومشاهدة ما يحدث والاستماع إلى ما يقال ، وطرح الأسئلة (المقابلات، ومراقبة المشاركين، و الإثنوغرافيا المرئيّة)، ينتج عنه أعمال مكتوبة بشكل غنّي تحترم عدم اختزال التّجربة الإنسانيّة، وتعترف بدور النّظريّة، بالإضافة إلى دور الباحث الخاصّ، وتنظر إلى البشر على أنّهم جزء من الموضوع، أبعد من ذلك، ينتج عنه اختيار كل إثنوغرافيّ ما إذا كان يرغب أو إلى أي مدى يرغب في النّظر في العوامل التّاريخيّة، وإلى أيّ مدى يمكن أن يكون ناقدا أو ينخرط في السّياسة الثّقافيّة (KAREN ، 2009، 3).

لا تتوقّف طبيعة البحث الإثنوغرافيّ عند هذا الحدّ، فوفقًا لـ(2007) Angrosino ، يبحث علماء الإثنوغرافيا عن أنماط يمكن التّنبّؤ بها في التّجارب البشريّة الحيّة من خلال المراقبة الدّقيقة والمشاركة في حياة الأشخاص قيد الدّراسة خلال فترات طويلة، من خلال انغماس الإثنوغرافيّ الكامل للباحث في الحياة اليوميّة أو ثقافة من هم تحت الدّراسة، ذلك أنّ الإثنوغرافيا كطريقة لها خصائص مميّزة معيّنة، حيث أوّلاً يتمّ إجراؤها في الموقع أو في بيئة طبيعيّة يعيش فيها أناس حقيقيّون، وثانيًا إنّها شخصيّة باعتبارك باحثا مراقبا ومشاركا في

حياة هؤلاء الأشخاص، إضافة إلى ذلك تجمع الإثنوغرافيا البيانات بطرق متعدّدة على مدى فترة زمنيّة معتبرة، لذا فهذه العمليّة استقرائيّة وشاملة وتتطلّب المدى الطّويل (Sangasubana ، 2011، 567-568).

5. نشأة منهجية الإثنوغرافيا:

يرجع تاريخ نشوء منهجيّة الإثنوغرافيا عادة لفترة ما بين أواخر القرن التّاسع عشر وبداية القرن العشرين، وقد تطوّرت المنهجيّة داخليّا لتصبح إثنولوجيا، والّتي يعتبر فرعا من المعرفة انشقّ في النّصف الأوّل من القرن التّاسع عشر عن الأنثروبولوجيا التّقليديّة، وكانت الإثنولوجيا تهتمّ أكثر ما تهتمّ بدراسة البشر وثقافتهم وتصنيف ملامحهم وصفاتهم البارزة، وقبل ظهور منهجيّة الإثنوغرافيا، لم يجمع علماء الإثنولوجيا المعلومات من خلال الملاحظة المستمرّة المباشرة، إذ بدلا من ذلك قاموا بدراسة وفحص سجلاّت الدّوائر والبعثات الحكوميّة وموادّ مراكز التّوثيق، إضافة إلى مدوّنات الرّحلات والتّقارير الّتي كتبت عنها (جيامبيترو، تر: رشدي، 2014، 33-34)، لذا لم تصبح منهجيّة الإثنوغرافيا علما بارزا بقوة فجأة في الأنثروبولوجيا، بل بالأحرى فإنّها نشأت وظهرت بالتّدرّج من خلال أعمال مؤلّفين متعدّدين، من بينهم عالم الأنثروبولوجيا ذي الأصول البولنديّة " مالينوفسكي " (1884-1942)، والإنجليزيّ " رادكليف براون " (1881-1955)، وعليه فقد استوعبت الأنثروبولوجيا الاجتماعيّة الإنجليزيّة ذات الطّابع الإثنوغرافيّ المناخ الفكريّ السّائد حينها لأصحاب الفلسفة الوضعيّة طبقا لما ذكره " رادكليف براون " باعتبارها علما طبيعيّا للمجتمع، وقد كان هجوم هذا الأخير العدوانيّ الجدليّ العنيف موجّها ضدّ الأنثروبولوجيا التّأمليّة المكتبيّة السّائدة الّتي كانت تعتمد على مصادر ثانويّة بدلا من اعتماد استخدام ملاحظة مباشرة للحقائق الاجتماعيّة (جيامبيترو، تر: رشدي، 2014، 34-35)

ويعتبر " مالينوفسكي " عادة أوّل من وضع منهجا لمنهجيّة الإثنوغرافيا، ففي مقدّمته الشّهيرة لكتابه " مغامرو المحيط الباسيفيكي الغربي 1922 " الّذي يعرض فيه بحثه حول جزر تروبرياند، يصف مالينوفسكي المبادئ المنهجيّة الّتي تشكّل الجزء الأساسيّ من الهدف

الرّئيسيّ للإثنوغرافيا، وهو فهم وجهة نظر القاطن وعلاقته بالحياة وذلك لمعرفة رؤيته لعالمه، وعاش مالينوفسكي من أجل هذا الهدف لمدّة عامين وسط سكّان جزر " تروبرايند " وتعلم لغتهم (أهل كيريو ينيا)، ولاحظ الحياة الاجتماعيّة للقرية بشكل مباشر وشارك في أنشطة الحياة اليوميّة بها معهم (جيامبيترو، تر: رشدي، 2014، 35)

إنّ ما أحدثه " مالينوفسكي " يعتبر في حقل الدّراسات الأنثروبولوجية " قطيعة إبستيومولوجيّة " نقلت النّشاط البحثيّ من صيغته الظّنيّة المرتكزة على اعتماد كتابات الآخرين عن الظّاهرة الّتي يودّ الباحث دراستها إلى صيغة يقينيّة يعاين فيها الباحث بنفسه كلّ تفاصيل الظّاهرة الّتي يسعى لدراستها في الميدان، وهذه القطيعة الجذريّة عزّزت الطّابع الموضوعيّ لهذا المجال البحثيّ بمختلف مستوياته.

عقب ذلك تطوّر البحث الإثنوغرافيّ والأنثروبولوجيّ وواجه إشكاليّات جديدة خصوصا في الحقبة الّتي عرفت في الكتابات الجيوسياسيّة باسم " ما بعد الكولونياليّة "، ذلك كون الاستعمار التّقليدي قد أحدث تغييرات جذريّة في المجتمعات الّتي استعمرها، نقلته من طور البدائيّة والتّقليديّة لطور الحداثة – حتّى وإن كانت مرهونة للميتروبول -، وبانتقال المجتمعات لهذا الطّور الجديد، وهو الطّور الّذي كان يقع ضمن مجال البحث السّيوسيولوجيّ باعتبار أنّ علم الاجتماع بمفهومه الغربيّ هو علم دراسات المجتمعات الغربية إزاء الأنثروبولوجيا التي هي علم دراسة المجتمعات البدائيّة والتّقليديّة، فإنّ الحدث الاستعماريّ الّذي نقل تلك المجتمعات من ذينك الطّورين إلى طور الحداثة أفزر إشكاليّات منهجيّة عمليّة تتمثّل في كون ما إذا كان من الضّروريّ المحافظة على المنهج الأنثروبولوجيّ الكلاسيكيّ لدراسة هذه المجتمعات الّتي بات التّغيّر والتّحوّل المطّرد سمة مميّزة لها، أم لا بدّ من مزاوجة أساليب ذاك المنهج مع أساليب منهج الدّراسات السّوسيولوجيّة، فكان أن أفضى الأمر – حتّى وإن وجدت معارضة من بعض الباحثين الأنثروبولوجيّين - إلى المزج بين

الأساليب البحثيّة الكلاسيكيّة للأنثروبولوجيا ببعض الأساليب البحثيّة السّوسيولوجيّة، ممّا أفرز لنا مجالا بحثيّا عرف تحت مسمّى " السّوسيو- أنثروبولوجيا ".

استمرّ العمل بالأسس المنهجيّة الجديدة في هذا المجال البحثيّ مع ملائمته مع مستجدّات البحث، سواء ما تعلّق منها بطبيعة الموضوعات المدروسة، أو بتكييف الأساليب البحثيّة مع مخرجات الوسائط البحثيّة الّتي أفرزتها مجالات علميّة أخرى، والّتي على رأسها " الحاسوبيّة " وتقنيّاتها البرمجيّة الّتي عرفت وتيرة تقدّم هائلة منذ ظهورها أواسط السّبعينات، هذه الوتيرة الّتي شهدت انفجارا غير مسبوق ونقلت البحث العلميّ نقلا خياليّا فاق كلّ ما شهدته البشريّة طيلة وجودها، والّتي مسّت من بين ما مسّته مجال البحوث في العلوم الإنسانيّة والاجتماعيّة، حيث ضعضت بقوّة مرتكزاته المنهجيّة مفرزة لنا بذلك مقاربات بحثيّة، بل وحتّى تخصّصات علميّة جديدة مع كلّ ما تحمله من حمولة مراجعاتيّة حادّة في مسألة المنهج، والّتي من بينها " الإثنوغرافيا الرّقميّة ".

6. الإثنوغر افيا الرقمية: حقل بحثي جديد ومعضلات المفارقات المنهجية

الإثنوغرافيا الرّقميّة ظهرت منذ فترة تصل لعقدين من الزّمن في الدّول الغربيّة المتطوّرة، رغم أنّ تكييفها وتطويرها ما زال لم يكتمل، بينما في الدّول العربيّة تبنّى الباحثون الإثنوغرافيا الرّقميّة كمقاربة منهجيّة متأخّرين في عدد قليل من الدّراسات، الّتي أغلبها يميل للبحوث الوثائقيّة النّظريّة وإهمال البحوث الميدانيّة التّطبيقيّة (بصيص و قدي، 2022، 86)، ويطلق على المقاربة الإثنوغرافيّة لدراسة مستخدمي الوسائط الجديدة (وسائط الفضاء الرّقميّ) عدّة مصطلحات منها **Cyber Ethnpgraphy** التي يمكن ترجمتها بـ " إثنوغرافيا الفضاء الإلكترونيّ "، ومصطلح **Digital Ethnography** التي تعني الإثنوغرافيا الرّقميّة، وكذلك تسمّى **Webnography** ومعناها إثوغرافيا الويب وأيضا **Netnography** التي تعني إثنوغرافيا الشّبكات بما فيها إثنوغرافيا الأنترنيت الّتي يطلق عليها تسميّة **Internet Ethnography** (بصيص و قدي، 2022، 84)، وكذلك يطلق عليها تسميّة الإثنوغرافيّة الافتراضيّة باعتبار أنّ مجال دراستها ميدانيّا هو عالم الويب الافتراضيّ، وعموما فإنّ هذا

التّخصّص العلميّ الجديد هو عبارة عن تداخل علمين برصيدهما الأدبيّ المعرفيّ هما كلّ من الإثنوغرافيا وعلم الإعلام والاتّصال، أمّا مجال التّطبيق والممارسة لهما فهو مجال الفضاء الإلكترونيّ بمختلف وسائطه، وهذا التّداخل الّذي فرضه التّغيّر الحاصل في ممارسات التّواصل والتّفاعل بتغيّر طبيعة قنواته دفع الباحثين في هذا السّياق إلى طرح العديد من التّساؤلات أهمّها: ما الّذي يدرسه هذا التّخصّص العلميّ الجديد بالضّبط ؟ وما هي الأدوات والأساليب يعتمدها في دراساته ؟

يبدو من خلال ما كتب في هذا التّخصّص الجديد أنّه نظرا للتّطوّرات الهائلة في مجال تكنولوجيا الإعلام والاتّصال، فقد تأثّر بعمق مجال البحث العلميّ في حقل علوم الإعلام والاتّصال لدرجة أنّ ذاك الانفجار الرّقميّ اضطرّ الباحثين إلى إعادة بناء التّصورّات حتّى تنسجم مناهج البحث مع متطلّبات العصر الرّقميّ (البشاري، 2024، 124) بزخمه الكاسح المتعاظم باطّراد، وهذا ما دفعهم إلى إبتكار مجال بحثيّ جديد متمثّل فيما سمّي بالإثنوغرافيا الرّقميّة الّتي تهتمّ بعلاقة المستخدمين مع الأجهزة التّقنيّة والاتّصاليّة الجديدة، وحتّى تفاعلاتهم معها يتمّ إجراؤها في الواقع الطّبيعيّ، وتستخدم فيها غالبا الأدوات والأساليب البحثيّة التّقليديّة، كما توجد دراسات إثنوغرافيّة أخرى تهتمّ أساسا بفهم علاقات الأفراد وسلوكاتهم وتفاعلاتهم في سياق الجماعات الافتراضيّة الّتي يندمجون فيها بواسطة وسائل الإعلام والاتّصال الجديدة (بصيص و قدي، 2022، 85)، وهي الأكثر كمّا في هذا المجال، والمعبّرة بصدق عن طبيعة التّفاعلات في العالم الافتراضيّ، وبالتّالي تمكّننا من جمع المعطيات حول تلك السّلوكات والاتّجاهات والمعتقدات والتمثّلاث الثّقافيّة والإدراكات والدّوافع الخاصّة بالأفراد (بوزير، 2022، 237)، ، وتأثير الأفراد في توجيه الرّأي العامّ أو على العكس من ذلك تأثير توجيه الرّأي العامّ للأفراد، وهو ما عبّرت عنه الباحثة " كريستين هاين " الّتي ترى أنّ هذا المجال البحثيّ لا تنحصر اهتماماته في الكيفيّة الّتي يستخدم بها النّاس

الأنترنيت، ولكن - أيضا - كيف تعطي ممارساتهم معنى للأنترنيت في سياقاتهم المحليّة ؟ (بوزير، 2022، 241).

من خلال ما سبق ذكره يتّضح لنا أنّ مجالات اهتمام الإثنوغرافيّة الرّقميّة هي نفسها اهتمامات الدّراسات الإثنوغرافيّة الميدانيّة، إلاّ أنّ الإثنوغرافيّة الرّقميّة تدرس تلك المجالات في فضاءات شبحيّة، تتّخذ الوسائط التّكنولوجيّة أداة ربط بين الباحث ومجال دراسته، والحقيقة أنّ هذا التّغيّر الحادّ في طبيعة العلاقة بين الباحث وميدان بحثه تطرح وبحدّة إشكاليّة أساليب وأدوات الدّراسة ؟ وكيفيّة تطبيقها ؟ وما مدى مصداقيّة النتّائج المتحصّل عليها ؟

يمكن القول أنّ كلّ الّذين كتبوا حول هذا الموضوع لم يتطرّقوا بالتّفصيل لأساليب وأدوات الدّراسة المعتمدة في هذا المجال الجديد، وجلّ ما قاموا به هو أنّهم ذكروا مصطلحات منهجيّة عامّة تدلّ على تلك الأدوات والأساليب دون ذكر أيّ شيء بخصوص تكييفها حسب طبيعة الموضوع المستجدّة، كما أنّهم لم يفصّلوا في كيفيّة تطبيقها في الفضاء الرّقميّ، وكأنّ المسألة حسبهم موكلة لاجتهاد الباحث في حدّ ذاته، إذ على كلّ باحث أن يأخذ بالأدوات والأساليب وكيفيّات الأداء حسب ما تمليه عليه طبيعة موضوعه، وهذا ما يدلّ على انعدام وضوح الرّؤية بهذا الخصوص لدى المنظّرين ولدى الممارسين على حدّ سواء، وسبب هذه المعضلة المنهجيّة - ممّا يستشفّ من كتاباتهم - هو كون الافتراضيّ من الصّعب ملاحظته ومحاصرته، ولا يمكن أن يفسّر ويحلّل مباشرة وبشكل دقيق (بوزير، 2022، 245)، كما يستشعر المطلّع على تلك الكتابات بطريقة ضمنيّة أنّ هؤلاء الباحثين غير متأكّدين من جدوى مواكبه تلك الأساليب والأدوات مع طبيعة المادّة المدروسة، وكأنّهم يريدون التّفكير في أساليب وأدوات بحثيّة مبتكرة لكن لحدّ السّاعة لم يسعفهم الأمر لابتكارها، وبالتّالي يشعرون - دون أن يعلنوا ذلك - بالفجوة الكبيرة بين طبيعة الأساليب والأدوات وآليّات الممارسات البحثيّة من جهة، وطبيعة المواضيع المدروسة ببناتها المتفلّتة من إمكانيّة التّحكّم المنهجيّ بها بتلك الأدوات والأساليب الكلاسيكيّة من جهة أخرى، وهذا ما يعبّر عنه بالقول أنّ

التّغيّر الأساسيّ الّذي نشهده في هذا السّياق هو التّطوّر المعرفيّ الّذي يهدف لتشخيص الانتقال من دراسة " الأماكن الطّبيعيّة " إلى دراسة " الأماكن الافتراضيّة "، الأمر الّذي أدّى إلى إعادة النّظر في استخدام الأساليب والأدوات البحثيّة المألوفة (بصيص و قدي، 2022، 84)، لكنّ السّؤال البراغماتيّ الّذي يبقى مطروحا في هذا السّياق: ما الّذي أسفرت عنه عمليّة " إعادة النّظر " هذه ؟ لحدّ السّاعة ليس هناك صراحة إجابات عمليّة بهذا الخصوص.

وإذا ما نظرنا للأمر من زاوية الممارسة التّطبيقيّة في هذا المجال البحثيّ فإنّه توجد طريقتين لإجراء البحوث الإثنوغرافيّة عبر الأنترنيت هما:

أولاّ: تقييم المصادر المتعلّقة بالتّفاعل مثل النّصوص، الصّور، الرّموز التّعبيريّة .... إلخ، من خلال مراقبتها عن بعد، دون الحاجة لمشاركة الباحث ضمن التّفاعلات الاجتماعيّة في الفضاء التّواصليّ على الأنترنيت.

ثانيا: مشاركة الباحث ضمن البيئة الاتّصاليّة الّتي يقوم بدراستها، ورغم أنّها قد تؤثّر على موضوعيّة البحث إلاّ أنّها تساعد على فهم أفضل للتّفاعلات الّتي تحدث بين المستخدمين (بصيص و قدي، 2022، 87).

ممّا يلاحظ بشأن هاتين الطّريقتين أنّهما عرضة للانتقاد الحادّ من قبل كثير من الباحثين، وحتّى أنصار هاتين الطّريقتين أنفسهم لم يتقبّلونهما إلاّ لعدم وجود البديل – ولا يمكن أن يوجد بديل على المدى القريب على الأقلّ - فكان اعتمادهما من باب الاكتفاء بالموجود إلى حين، ففيما يتعلّق بالطّريقة الأولى يكفي أن نقول أنّه تمّ إهمال عنصر التّزامنيّة والمواكبة الّذي يشكّل ميزة جديدة في البحوث الإثنوغرافيّة الافتراضيّة (بصيص و قدي، 2022، 87)، وكأنّه يقرّ استعمال المادّة الأرشيفيّة الافتراضيّة بديلا عن التّفاعل المباشر للباحث مع موضوعه، أمّا بخصوص الطّريقة الثّانيّة فقد انتقدت – وهو نقد يصدق حتّى على الأولى – لكونها بدلا من النّزول إلى مواقع ميدانيّة معيّنة، فإنّه لا يتمّ الاعتماد على ذلك في

الإثنوغرافيّة الافتراضيّة، ممّا يعني أنّ الباحث ليس ملزما للذّهاب إلى أماكن معيّنة عند إجراء دراسة إثنوغرافيّة افتراضيّة، أين يمكنه الاكتفاء بإجراء اتّصالات إلكترونيّة مع الأشخاص المرتبطين بالبحث لجمع البيانات أو إجراء المقابلات (بصيص و قدي، 2022، 88)، وهذا غير كاف لاستخلاص مادّة معتبرة وموثوقة مرتبطة بموضوع الدّراسة، وما يعمّق من إشكاليّة موضوعيّة المادّة المستخلصة من مثل هكذا ميدان هو أنّ الباحث قد يتعامل مع ما يسمّى في الفضاء الرّقميّ باسم " الوحدات الشّبحيّة " الّتي قد تكون كيانات فعليّة لكنّها لا تعبّر عن حقيقة الموضوع المدروس باعتبارها لا تنتمي أصلا له، وإنّما تدّعي ذاك الانتماء، أو كيانات وهميّة مثل التّطبيقات أو البرمجيّات الذّكيّة خصوصا مع تطوّر الّذكاء الاصطناعيّ الّذي يمكنه محاكاة الوقائع بدقّة عالية لا يستطيع معها حتّى الباحث المتمرّس – في أحايين كثيرة - التّمييز بينه وبين أفراد عيّنة بشريّة، هذا دون الإشارة إلى نوعيّة البحوث الّتي قد يكون بعضها – نظرا لحساسيّتها – عرضة للاختراق والهيكرة، أو تغيير وتبديل المعطيات ممّا يؤثر سلبا على موضوعيّة النّتائج، وما يزيد في القدح من موضوعيّة هاتين الطّريقتين في الأداء هو أنّ الإثنوغرافيّة الافتراضيّة عموما هي عمليّة المشاركة المتقطّعة، وليس الانغماس في الموضوع على المدى الطّويل (بصيص و قدي، 2022، 88)، أي أنّها تفتقر كليّة للرّكيزة الأساسيّة للبحث الإثنوغرافيّ : " الملاحظة بالمشاركة ".

بالرّجوع لكلّ ما سبق ذكره بخصوص الإثنوغرافيّة الرّقميّة يمكن ملاحظة أنّ الانتقادات الموجّهة لها – على الأقلّ الآن – هي انتقادات لا تختلف في جوهرها عن تلك الّتي وجّهت قبلها للإثنوغرافيّة المكتبيّة، فكما أنّ هذه الأخيرة كانت تفصلها عن موضوع الدّراسة " الفجوة الجغرافيّة " الّتي كانت تستعيض عنها بكتابات وتقارير الرّحالة والعسكريّين، فإنّ تحقيق موضوعيّة النتّائج دفع بالأنثروبولوجيّ " مالينوفسكي " إلى إحداث " قطيعة إبستيمولوجيّة " مع التّقاليد المكتبيّة الأنثروبولوجيّة المتضمّنة ما هو إثنوغرافيّ وإثنولوجيّ – حسب ما أوردناه سابقا -، وذلك بفرضه شرطا لتحقيق موضوعيّة الدّراسة ومصداقيّة نتائجها ما سمّاه " الملاحظة بالمشاركة " المتمثّلة في تجاوز تلك الفجوة الجغرافيّة بين الباحث وموضوعه، حيث

يكون الباحث حينها ملزما بالانتقال إلى ميدان الدّراسة بنفسه ومشاركة مجتمع البحث مختلف أنشطتهم الحياتيّة لاستدخال الموضوع في عمق تجربته الشّخصيّة، فيصبح بذلك جزءا من مجتمع الدّراسة بمعايشتهم ومزاولة سائر أنشطتهم معهم مما يتيح له فهما أعمق يخوّله رسم صورة أمينة وموضوعيّة للجماعة المدروسة، وبالرّجوع للإثنوغرافيّة الرّقميّة الّتي نظرا لطبيعة الموضوع المدروس ألغت هذه الخطوة المحوريّة والمركزيّة، فإنّها بذلك أسّست لما يمكن اعتباره " نكوصا إبستيمولوجيّا " باعتبار أنّها أحدثت شرخا بين الباحث وموضوعه، حتّى وإن كان هذا الشّرخ خارجا عن نطاق سيطرتها، وهو الّذي يفرض عليها العودة إلى المقاربة المكتبيّة بصيغة أخرى، استنادا إلى ما يمكن تسميتة باسم " الفجوة الشّبحيّة " باعتبار أنّ موضوع الدّراسة وإن كان موجودا وجودا فعليّا إلاّ أنّ وجوده مرهون بالوسائط الرّقميّة الّتي لا يمكن التّفاعل مع مرتاديها تفاعلا مباشرا، وهذا في حدّ ذاته يطرح إشكاليّة أخرى عويصة لم تكن تخطر على بال الباحثين السّابقين في هذا المجال، والمتعلّقة بتناغميّة الجماعات المدروسة، وعليه على الباحثين إحداث " قطيعة إبستيمولوجيّة " جديدة في هذا الميدان تجعل من معالجتهم تتّسم بالطّرح الموضوعيّ الّذي هو أهمّ مطلب أكاديميّ في البحث العلميّ، هذه الموضوعيّة والالتزام بها هي مصدر كلّ الإشكالات المطروحة في هذا المجال البحثيّ، ويبقى المجال مفتوحا للاجتهاد حول إيجاد الحلول لها، سواء كانت من اجتهاد الباحثين المحض، أو بالاستعانة بالذّكاء الاصطناعي.

7. خاتمة:

يمكن القول أنّ هذا المقال قد أخذ بعدا نقديّا للمقاربة الإثنوغرافيّة في فضاء البيئة الرّقميّة، حيث لا يزال هذا المجال البحثيّ في أوّليّاته، لذا من الطّبيعيّ أن تشوبه الكثير من الثّغرات والنّقائص، وقد سعينا إلى إبرازها ليتّخذها الباحثون في هذا المجال منطلقات يبحثون من خلال عن حلول العوائق الّتي تحدّ من فعاليّتهم وتضفي مزيدا من الموضوعيّة على دراساتهم ونتائجها، مع العلم أنّ هذا المجال البحثيّ واعد بالكثير من المفاجآت، تحذوه

الكثير من الآمال والتّطلّعات لمستقبل أكاديميّ زاهر، فالنّقد لا يعني البتّة الانتقاص من المجهودات المبذولة بقدر ما هو تثمين لها وتوجيه لما يجب تداركه من نقائص.

8. قائمة المراجع:

- **المؤلفات:**

  - Duranti, A., & darwich, F. . (2013). Linguistic Anthropology. Beirut: Centre for Arab Unity Studies.
  - Giampietro, G., roshdy, mohamed, & zayed, ahmed. (2014). Doing Ethnography. Cairo: National Center for Translation.
  - Claude LEVI-STRAUSS, (1958), Anthropologie structurale, Librairie Plon, paris.
  - KAREN O'REILLY, (2009), Key Concepts in Ethnography, SAGE Publications Ltd, London.
  - Leah Shagrir, (2017), Journey to Ethnographic Research, Springer International Publishing, New York.

- **المقالات:**

  - Scott Reeves, Jennifer Peller, Joanne Goldman , Simon Kitto, (2013), Ethnography in qualitative educational research: AMEE Guide No. 80, Medical Teacher, Volume 35, Issue 8, p 1365-1379.
  - bassis, A.-T. ., & Qaddi, A.-R. . (2022). Virtual ethnography and its uses in new media's study. El-Ryssala Journal for Studies and Researches in Humanities, 7(4), 83-95.
  - El-bechari, K. (2024). Ethnographic research and backgrounds of audience formation in the digital field. Journal of El Hikma for Philosophical Studies, 12(1), 120-134.

- Michael Genzuk, M. (2003). A synthesis of ethnographicresearch. Occasional Papers Series. Center forMultilingual, Multicultural Research (Eds.).Center for Multilingual, Multicultural Research,Rossier School of Education, University ofSouthern California. Los Angeles, 1-10
- Nisaratana Sangasubana, (2011), How to Conduct Ethnographic Research, The Qualitative Report,2011, volume16,issue2, p 567-573.
- Bouzir, A. L. . (2022). The stakes of ethnographic investigation, the methodology of studying virtual audiences. Journal El-Bahith in Human and Social Sciences, 13(1), 234-236.

- **المؤلفات**:

- إلسندرو دورانتي، تر: فرانك درويش، (2013)، الانثروبولوجيا الألسنية، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت.
- جيامبيترو، تر: محمد رشدي وأحمد زايد، (2014)، إجراء البحث الإثنوجرافي، المركز القومي للترجمة، القاهرة.

- **المقالات:**

- الطّاهر بصيص وعبد الرحمان قدي، (2022)، الإثنوغرافيا الافتراضيّة واستخداماتها في دراسة الوسائط الجديدة ، مجلّة الرّسالة للدّراسات والبحوث الإنسانيّة، المجلّد 07، العدد 04، ص 83-95.
- خليدة البشاري، (2024)، البحث الإثنوغرافيّ وخلفيّات تشكّل الجمهور في المجال الرّقميّ ، مجلّة الحكمة للدّراسات الفلسفيّة، المجلّد 12، العدد 01، ص 120-134.
- عبد اللّطيف بوزير، (2022)، رهانات تحقيق الإثنوغرافيا، منهجيّة دراسة الجمهور الافتراضيّ ، مجلّة الباحث في العلوم الإنسانيّة والاجتماعيّة، المجلّد 13، العدد 01، ص 236-254.